مدينة الفسطاط

لجناب الاديب صالح افندي حمدي

لا يخفى ان الفسطاط اول مدينة اختطها العرب بمصر بعد فتحهم لها على يد القائد الشهير عمرو بن العاص وجعلوها عاصمة هذه الديار وذلك في سنة ٢١ ﻫ . وموقع هذه المدينة الآن جنوبي القاهرة الى الشرق من مصر العتيقة وآثارها التلال والكيمان الكبيرة الممتدة من اطراف الترافة الكبرى تحت سفح المقطم الى مسجد ابي السعود الجارحي فجامع عمرو. وقد ازدهت هذه المدينة ايّان شبيبتها حقبة من الدهر واشتهرت بين مدن الاسلام التي كان يضرب المثل بكثرة عمارتها ونزوحها ولم يخط قدرها الاّ بعد بناء القاهرة العاصمة الحالية على يد جوهر قائد المعز الفاطمي سنة ٣٥٩ ﻫ فأخذت الفسطاط اذ ذاك في الاضمحلال شيئًا فشيئًا الى ان قضى عليها حريق شاور السعدي في صفر سنة ٥٦٤ ﻫ فصيرها اثرًا بعد عين

وكان موضع الفسطاط في الازمنة السالفة بلدة قديمة اسمها بابل او بابليون على ضفة النيل الشرقيّة ازاء الجيزة وسبب تسميتها بهذا الاسم على ما ذكرهُ مؤرخو اليونان ان مؤسسيها كانوا من اهل بابل العراقية اسرهم كمبيز ملك فارس واتى بهم بلاد مصر التي كانت في حوزتهِ اذ ذاك فانزلهم تلك الجهة فبنوا فيها هذه المدينة ونسبت اليهم . وقد ذكرها علماء التاريخ المصري القديم وعدوها من ضمن المدن الشهيرة باقليم أون الشمالية (عين شمس او المطرية) وكان في بابليون هذه معبد للنيل وذكر مؤرخو العرب انهُ كان في حصنها حين الفتح مقياس للنيل ايضًا

واشتهرت بابليون بطريقها المسلوك الى المطرية فوق المقطم لان النيل كان يجري اذ ذاك تحت سفحهِ في موضع القاهرة وما والاها الى المطرية التي كانت وقتئذٍ على شاطئهِ وكان طريقًا عظيمًا تسلكهُ الجنود والناس بهائمهم وكانوا يسمونهُ " خرخان او خِرخران " ومعناهُ موضع القتال او موضع عُدد القتال مما يدل على انهُ كان نقطة حربية مهمة وتزعم خرافاتهم انهُ طريق معبودهم " سب "

وقد ذكر مؤرخو العرب هذا الطريق عند تكلمهم على البناء الذي كان يقال لهُ تنور فرعون وكان فوق المقطم وقد بناهُ احمد ابن طولون مسجدًا قبل مسجدهِ الشهير وقالوا ان سبب تسميتهِ بهذا الاسم ان فراعنة مصر الذين كانوا ينزلون عين شمس كان من عادتهم اشعال النار ليلاً في ذلك المكان عند اجتيازهم هذا الطريق لكي يستعد الاهلون لملاقاتهم

بكل ما يعوزهم ولعلّ السبب في ذلك انما هو اعتداء المارة في غلس الظلام كما لا يخفى

وفي القرن الرابع للميلاد كان في بابليون هذه حامية كبيرة ولا بدّ ان يكون الجسران اللذان ذكر مؤرخو العرب انهما كانا عند الفتح يصلان هذه البلدة بجزيرة الروضة فالجيزة كانا في ذلك الحين او قبله وكانا من مراكب مصطفة بعضها جذاء بعض وعليها الواح الخشب والتراب لكي يسهل مرور الناس بدوابهم عليها وكان عرض كل منهما ثلاث قصبات وقد جدّدا مرارًا في الاسلام

اما حصنها الشهير بقصر الشمع فكان حصنًا منيعًا مشرفًا على النيل تحيط به المدينة من ثلاث جهاته ولم يعلم على التحقيق زمن انشائه والمرجّح انهُ من بناء فارس حين استيلائهم على هذه الديار على ان صورة السور الروماني التي على باب حائطه الجنوبي تدل دلالة واضحة على ان الرومان جدّدوا بناءهُ في ايامهم ولم تزل آثار هذا الحصن قائمة الى اليوم وهي دير ماري جرجس وما جاورهُ من الكنائس والابنية الداخلة في دائرته ولكن منظرها قد شوّه بما جدّد فيها من العمارة وقد بعُد عنها النيل من زمن الفتح الى الآن نحو ٤٠٠ متر

ولمّا نزل عمرو بن العاص بجيوشه شمالي هذا الحصن كانت بابليون خرابًا فكان موضع الفسطاط فضاء فيما بين المقطم والنيل ولم يكن في تلك الجهة اذ ذاك الاّ الحصن المذكور وبعض الكنائس والاديرة ومزارع منثورة في ذلك الفضاء على ابعاد متفاوتة . فلما افتتح عمرو الحصن واراد الخروج الى الاسكندريّة امر بنزع فسطاطه وكان مضروبًا على مقربة من الجامع المنسوب اليه الآن فاذا فيه يمامٌ قد فرّخ فامر بتركه على حاله وقال " والله ما كنا لنسيء الى من لجأ بنا واطأن الى جانبنا " فلما رجعوا من امر الاسكندريّة قال الجنديان تنزل فقال عمرو الفسطاط مشيرًا الى فسطاطه فهذا هو السبب في تسمية هذه المدينة بالفسطاط على ما ذكرهُ اكثر المؤرخين . ولما نزل عمرو موضع فسطاطه وانضمت القبائل التي معهُ بعضها الى بعض اخذت تتنافس وتتنازع على المواضع فعين عمرو على تخطيطها لهم اربعة من اصحابه فانزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وكان هذا اول نشأة تلك المدينة

والخطط التي اختطها قبائل العرب لاول مرة في الفسطاط كانت كثيرة وهي بمنزلة الحارات في القاهرة وقد ذكرها المقريزي نقلاً عن القضاعي فقال

ان خطة اهل الراية وهم بطون من نخبة القبائل التي حضرت فتح مصر كقريش والانصار وخزاعة وغيرهم كانت كبيرة متسعة ذات اسواق وشوارع تحيط بجامع عمرو من جميع جهاته ممتدة من المصف الذي كانوا عليه في حصارهم للحصن عند الباب الذي كان

يقال له باب الشمع الى النيل غربًا . وتلي هذه الخطة من الجنوب خطة مهرة بن حيدان من حمير وتلي هذه الى آخر حائط من الحصن الشرقي خطة نجيب وهم بنو عدي من كندة ونجيب اسمهم

وكان لهم ثلاث خطط احداها في شمال اهل الراية والفتحان الاخريان وهما ربّة وراشدة كانتا متداخلتين تمتد اولاهما الى كنيسة ميكائيل عند خليج بني وائل والثانية الى الآثار النبويّة (اثر النبي الآن) وكان في هذه الخطة جامع راشدة وجنان بني كهس المعروف بالمادراني وكانت مشرفة على بركة الحبش . وتلي خطة اهل الراية من الشمال الغربي خطط اللبيف وهم اخلاط من القبائل وكانت تمتد الى سوق وردان مولى عمرو بن العاص القريب من دير النحاس . وخطط اهل الظاهر وهم القبائل التي كانت في الاسكندريّة ثم رجعت بعد عمرو وكانت تمتد من خطة لخم الاولى الى موضع العسكر وتلي لخم الاولى ايضًا الى خطط الظاهر خطة غافق من الازد

والفارسيون وهم من جنود فارس ممن اسلم وحضر مع عمرو الى مصر للغزو اختطوا بها في الارض الصفراء التي الى الشرق من خطة الجامع الطولوني . ونزلت وعلان بالقرب من قبر القاضي بكار في القرافة الكبرى وكان في خططها صنم يعرف بسريّة فرعون ولا بد ان يكون من تماثيل القدماء . وقد دثرت هذه الخطة لعهد القضائي المتوفى سنة ٤٠٧ هـ . اما خطة بحصب فكانت متصلة بالرصد (المقطم) المطل على راشدة وكانت كما تا لعهده ايضًا . وخطة المغافر كانت تبتدىء من الرصد الى ان تفصل بين القرافتين الكبرى والصغرى عند القناطر التي كانت تعرف بسقاية ابن طولون . وكانت خطة السلف بن معد بين الكوم المطل على القاضي بكار والمغافر وكان هناك المصلّى القديم ودار الامارة بالعسكر . واختط بنو وائل في سفح الرصد بالقرب من ربّة وراشدة وقد ذكر المقريزي خططًا اخرى اضربنا عنها خشية الاطالة ولا يمكن تعيين مواضع تلك الخطط تعيينًا حقيقيًا الآن لانها دثرت كلها وتغيرت اسماؤها فضلاً عن انها لم تترك اثرًا يذكر غير ما هناك من التلال التي قلّ ان تفيد شيئًا غير الاستدلال العمومي على وجود تلك المدينة

وقد قسم المقريزي هذه المدينة الى قسمين بتال لاحدهما عمل فوق وهو الفسطاط الحقيقية وحدودها دير الطين وبركة الحبش المندثرة الآن الى المقطم ومن الشرق المقطم حيث القرافة الكبرى ومن الشمال قناطر السباع وهي الجراة او العيون التي بنيت فيما بعد لتوصيل ماء النيل الى القلعة ومن الغرب نهر النيل . والثاني عمل تحت وهو ما دون ذلك

الى القاهرة فكان يدخل فيه المكان المعروف بالعسكر الذي بني بظاهر الفسطاط وكان يمتد كالفسطاط من سفح المقطم الى النيل غربًا فيدخل في دائرته مشهد زين العابدين وقنطرة السد حيث يقطع الخليج الآن الى خط السيدة زينب شمالاً . ثم قطائع ابن طولون وهي الى الشمال الشرقي من العسكر وكان يدخل فيها ميدان القلعة حيث كان قصر ابن طولون ومشهد السيدة نفيسة وكذا خط قلعة الكبش وجامع ابن طولون وما يليها جنوبًا الى مشهد زين العابدين وشمالاً خط الصليبة وكل ذلك كما لا يخفى من ضمن القاهرة الآن

ولا خفاء ان ابنية هذه المدينة كانت بادئ بدء على غاية البساطة على انها ما لبثت ان اتسع حالها فظهرت فيها المباني الضخمة والمنازل الكبيرة والاسواق العظيمة وتقاطر اليها السكان من كل صوب فازدادت فيها العمارة ازديادًا كبيرًا حتّى قالوا انها كانت كذلك بغداد ومساحتها نحو فرسخ على غاية من العمارة والطيبة . قال المقريزي انهُ كان بها نحو ٣٦ الف مسجد و ٨ آلاف شارع و ١١٧٠ حمامًا وهذا القول لا يخلو من المبالغة ولكنهُ يدل دلالة واضحة على ما كانت عليهِ هذه المدينة من كثرة العمارة ايام مجدها الاول

وقد احترقت الفسطاط سنة ٥٦٤ للهجرة ولكن بقي فيها شيء كثير من العمارة حتّى سنة ٧٢٥ ولاسيما في قسمها الغربي كما يؤخذ مما نقله المقريزي عن ابن المتوج فقد ذكر من اخطاط الفسطاط الشهيرة ٥٣ خطًا ومن الحارات ١٢ ومن الازقة المشهورة ٨٦ ومن الرحاب ١٥ ومن القياسر ٧ ومن الجوامع بالفسطاط وضواحيها من الغرافة والجزيرة ١٤ ومن المساجد ٤٨٠ ومن المدارس ١٧ ومن الزوايا ٨ ومن الكنائس والاديرة ٣٠ ومن الدروب ٥٣ ومن الاسواق ١٩ ومن الخطط المشهورة بالسور ١٣ ومن الحمامات نيفًا و ٧٠ حمامًا وغير ذلك مما اغفلناهُ وقد دثر معظمهُ لعهد المقريزي اما الآن فلا يعرف لهُ اثر

وكانت ابنية المدينة ابان زهوها مرتفعة جدًا حتّى قالوا ان دورها كانت تبلغ الست او السبع طبقات وكان يسكنها نحو المئتين من الانفس ولكنها كانت دون منازل القاهرة في البهاء والرونق لانها كانت مبنيّة بالطوب الادكن والقصب والنخيل وكانت شوارعها وازقتها ضيقة قذرة مزدحمة بالناس . اما منازلها التي كانت على شاطىء النيل مقابل جزيرة الروضة فكانت بهيجة المنظر كثيرة النزهة وفي ذلك يقول بعضهم

نزلنا من الفسطاط احسن منزلٍ بحيث امتداد النيل قد دار كالعقدِ
وقد جمعت فيهِ المراكب سحرةً كسرب قطًا اضحى يرفُّ على وِردِ

اما قسم الفسطاط الشرقي فانهُ لم تقم لهُ قائمة بعد الخراب الاول

وكان للمدينة اسوار وابواب وقد خربت وجددت مراراً ذكر ابن يزيي منها اربعة اولها باب الصفا وكان شرقي المدينة حيث القرافة بالقرب من الكوم الذي كان يقال له كوم الجارح وكان هذا الباب اعظم ابواب الفسطاط منه تخرج العساكر وتعبر القوافل . والثاني باب الساحل لانه كان ينفضي بسالكه الى ساحل النيل وموضعه بالقرب من كوم الكبارة او المشابيق وهو الكوم المجاور للمذبح الجديد الآن كما عينه سعادة علي باشا مبارك . والثالث باب مصر في الشمال وكان بين بستان العاملة (وهو جنينة السادات بثم الخليج الآن) وبين الكوم السابق ذكره . الرابع باب القنطرة نسبة الى قنطرة بني وائل وموقعه جنوبي الفسطاط . وقد كان في عزم السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ان يبني سوراً يحيط بالفسطاط والقاهرة معاً فلم يتهيأ له ذلك وعاجلته المنية قبل اتمامه

وقد اشتهرت الفسطاط على الخصوص بسعة تجارتها ورواج اسواقها لكثرة الوارد والصادر منها براً وبحراً على القوافل وفي النيل فكانت المتاجر والمحاصلات تجتمع فيها من جهات البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وتتفرق منها حتى بعد بناء القاهرة ننسها كما يشهد بذلك ما حكاه ابن سعيد المغربي وغيره . اما صناعتها فكانت على جانب عظيم من النمو والسعة فكان فيها معامل للسكر والصابون والشمع والورق والخزف والنسج وبالجملة جميع الصنائع التي برع فيها العرب والقبط . وقد يكفي في اظهار مهارة صناعها وحذقهم ما تنلته التواريخ عن بذخ امرائها كاحمد بن طولون وابنه خمارويه ومن جرى مجراهما فان جميع قصورهم وابنيتهم وما كان فيها من نقش وزخرف كل ذلك قد خرج من ايدي صناع المدينة

ومع ما كانت عليه هذه المدينة من وفرة العمارة وكبير الثروة لم تكن جيدة الهواء ولا جميلة المنظر كغيرها من المدن العربية وقد ذمها بعض من زارها كابن رضوان وابن سعيد وعبد اللطيف البغدادي لانها كانت في غور من الارض يحيط بها المقطم شرقاً وقطعته المعروفة بالرصد او الشرف جنوباً وجبل يشكر وما عليه من الابنية شمالاً هذا فضلاً عن ارتفاع ابنيتها وضيق شوارعها وازقتها على ما فيها من كبير القذارة والعفونة لكثرة ما كان يلقى في قارعتها من اوساخ المنازل وجيف الحيوانات وما كان يخالط ماء النيل من مجاريها وما كان يعلو افقها من دخان حماماتها وغبار ارضها فلا غرو اذا كانت الاوبئة لم تنفك عن ذراها سنة من السنين

على ان الفسطاطيين كانوا يجدون تعزية عن ذلك بما كان لهم من الضواحي والمتنزهات الجميلة على ضفاف النيل كالجيزة التي كانت من اكبر الجنان وجزيرة الروضة الشهيرة التي

يقول فيها ابن ماني الشاعر

جزيرة مصر لا عدتكِ مسرة ولا زالتِ اللذّاتُ فيكِ اتصالُها
مغانيكِ فوق النيل اضحتْ هوادجًا ومختلفاتُ الموجِ فيها جمالُها

وقد كان لهذه الجزيرة المقام الجليل في سالف الزمان فكان فيها ابراج وحصون ثم اتخذها امراء مصر وملوكها متنزهًا لهم فبنوا فيها القصور العالية والابراج الشامخة وغرسوا فيها البساتين والحدائق الغناء. وكان لاهل الفسطاط والقاهرة ولوع زائد بسكناها والتنزه في رياضها حتّى اضحت لكثرة عمارتها كمدينة قائمة بمفردها ولم يزل فيها الى الآن مقياس النيل الشهير وبقية من الدور الجليلة

وكان لاهل الفسطاط متنزه آخر لا يقل عن هذه الجزيرة وهو بركة الحبش التي يقول فيها ابو الصلت امية بن عبد العزيز الاندلسي

لله يومٌ ببركة الحبشِ والافقُ بين الضياء والغبشِ
والنيل بين الرياح مضطربٌ كصارمٍ في يمينِ مرتعشِ
ونحنُ في روضةٍ مؤنّقة دُبّجَ بالنور عطفُها ووشي

وكان لهم حول تلك البركة دور وبساتين غاية في الرونق والبهاء وقد دثرت من عهد بعيد وصارت ارض مزارع بين المنطم ودير العطين على النيل

وكانت اعيادهم ومواسمهم كثيرة يشترك فيها جميع الناس من كل الطبقات والمذاهب ولاسيما اعياد النيل التي كان اكثرها من عهد القدماء وقد نسخ معظمها الآن فكانوا يخرجون فيها من الفسطاط والقاهرة وما جاورها الى النيل في المراكب والزوارق ويظهرون فيها من الطرب والخلاعات والمجون ما يخرج عن حد الادب

وكانت الفسطاط ثالثة المدن التي شادها العرب في البلاد التي افتتحوها وهي البصرة والكوفة والفسطاط وكذلك جامعها الشهير بجامع عمرو كان ثالث المساجد التي بنيت في صدر الاسلام وكان موضعهُ جنانًا وحدائق لقيسبة بن كلثوم النجيبي فوهبها لبناء الجامع المذكور وفي ذلك يمدحهُ بعضهم بقولهِ

وبالميمون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمر الله فيئًا ومغنما
وقيسبة الخير ابن كلثوم دارهُ اباح حماها للصلاة وسلّما

فبنى عمرو فيها جامعهُ وكان يقال لهُ تاج الجوامع وجعلهُ على شكل بناء الكعبة وجلب اعمدتهُ وادواتهُ من خرابات منف وذلك في السنة التي بنيت فيها الفسطاط وكان هذا الجامع

في بدء امره صغيرًا ولكن ولاة مصر وملوكها من بعد عمرو جدّدوا فيهِ ووسّعوهُ حتّى خرج عن بنائهِ الاصلي وبلغت بهِ الزخرفة مبلغًا عظيمًا وصار لهُ اربع او خمس من المآذن وثلاثة عشر بابًا وطليت بعض عمدهِ بالذهب وفرشت ارضهُ بالمرمر ونقشت حيطانهُ بالايات القرآنيّة وجعلت فيهِ الزوايا للقرّاء والمدرسين وكان للامام الشافعي رحمهُ الله زاوية فيهِ. وكان يوقد في هذا الجامع ليلاً نحو من ١٨ الف قنديل من الزيت وبلغ عدد عمدهِ ابان زهوهِ نحوًا من ٤٠٠ عمود. وقد ذكر المقريزي جوامع ومدارس في هذه المدينة غير هذا الجامع اضربنا عنها لانها خربت الآن ولا يكاد يعرف لها اثر

وقد تأخذ الانسان الدهشة والحيرة عندما يزور آثار تلك المدينة ويسرح طرفهُ يمينًا وشمالاً فلا يرى الاّ اطلالاً بالية ورسومًا عافية وتلالاً يأخذ غبارها بالارواح والابصار وكيمانًا تحجب بمنبرّ ترابها ضوء النهار. لا تكاد تنطق عن مآثر قومها او تترجم عن مفاخر اهلها كما هو الحال في آثار المدن القديمة الاخرى ولكنهُ مني راجع ما كان بثوب تاريخها من كثرة الفتن وردد ما كان يلحق بها من الاحن علم بداهة سر هذا المنقلب وعرف ان ايدي الانسان فعلت بها اكثر من ايدي الزمان

برج ايفل

المرء مولع بالشهرة والامتياز على غيرهِ وهذا الخلق الفطري ظاهر في الشعوب ظهورهُ في افرادها فترى زيدًا يبالغ في اتقان دارهِ وبنائهِ ومأكلهِ ومشربهِ ويغفها او يزخرفها او يُدخِل فيها ما يندر وجودهُ او يغلو ثمنهُ لكي يمتاز على اقرانهِ ويتشبّه بالذين فوقهُ وهندًا تتزيّن بالحلي والحلل لكي تفوق اترابها وتمتاز عليهنّ. وهذا شأن الامم والشعوب فانها لا تنتأ تباري وتسابق في ميدان الشهرة والامتياز

ومن اشهر اساليب الشهرة والامتياز عند الشعوب القديمة والحديثة انشاء المباني الفخيمة والصروح الباذخة من اهرام مصر الى هياكل الصين. وقد بلغ الاقدمون حدّ الاعجاز في رفع المباني منذ ستة آلاف سنة ولم يفقهم احد من المتقدمين ولا من المتأخرين الاّ منذ عهد قريب جدًّا لان الجميع اعتمدوا على الحجارة وبناء الشواهق بها عظيم المشقة كثير النفقات يتعذّر البلوغ بهِ فوق الحد الذي بلغهُ الاقدمون في اهرام مصر ولم يتسنّ للمتأخرين ان يتوقوا هذا الحد كثيرًا الاّ لمّا استعملوا الحديد في برج ايفل الآتي ذكرهُ. وقد رسمنا اشهر المباني